مبشرات المستقبل للإسلام
في ضوء الكتاب والسنة

الأستاذ صالح عومار

جامعةالأمير عبد القادر–قسنطينة

لقد بدأ الإسلام مستضعفا وغريبا بين سائر الأديان،... وكذا المسلمون كانوا غرباء في أوطانهم وبين أهليهم،... وفي مثل هذه الأحوال العصيبة والأجواء المظلمة، يربي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه وأمته من بعده على الاستبشار والأمل، فيقول وهو مسند ظهره إلى الكعبة، وهي تئن تحت قبضة الشرك والمشركين، وقد شكى إليه المسلمون شدة ما يلاقونه من المشركين فقال: **"قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، واللهِ ليتمنّ اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاءإلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون"**[1]، وكذا تبشيره أصحابه بفتح إمبراطورية فارس في وقت عصيب جدا، وصفه الله تبارك وتعالى بقوله: **"إذْ جاءُوكُمْ من فوْقِكُم ومنَ اَسْفَلَ مِنْكم وإذْ زاغَتِ الاَبْصارُ وبَلَغتِ القُلُوبُ الحناجِرَ وتظُنُّونَ باللهِ الظّنُونا، ..."** [الأحزاب 10]، وذلك في غزوة الأحزاب، فعن البراء بن عازب – رضي الله عنه — قال: لما كان حين أمرنا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي— صلى الله عليه وآله وسلم —، **فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكَسَرَ ثلثها، وقال: الله أكبر أُعْطِيتُ مفاتيح الشّام، واللهِ إني لأُبْصرُ قصورَها الحُمْرَ الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله**

1– الحديث رواه: البخاري رقم 3852، 6943، وأبو داود (2278)، وأحمد.

إني لأبصر قَصْرَ المدائن أَبْيَضَ. ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بَقِيَّةَ الحجر فقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح الْيَمَنِ، والله إني لأبصر أبواب صَنْعَاءَ من مكاني هذا، الساعة"**[1]

وقبل هذا أيضا، تبشيره سراقة بن مالك بسِوَارَيْ كسرى عندما لحقه أثناء الهجرة،وقد خرج صلى الله عليه وآله وسلم من مكة خائفا طريدا، بعد سنين عدة من الاضطهاد والحصار، والتنكيل والاستضعاف، يخرج ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ من خير بلاد الأرض، وأطهر بقعة فوق هذه المعمورة، ويترك أول بيت وضع للناس، مهاجرا بدينه، باحثا عن مكان يقيم فيه دولة التوحيد والحق. وأثناء رحلته هذه، وما لقيه فيها من خوف وتعب ونصب، ولنا أن نتصور حاله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ؛حال الطريد الخائف والملاحق من قبل أعدائه، ثم يلحقه أحدهم وهو سراقة بن مالك، فما هو يا ترى موقفه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ؟ وهو قدوتنا وإمامنا، وخير الهدي هديه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ؛

يقول سراقة بن مالك: "... وأخذت فرسي فركبتها، حتى دنوت منهم،فعَثَرَتْ بي فرسي، فخرَرْتُ عنها،... فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، **أن سيظهر أمرُ رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ،... فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عَامِرَ بن فُهَيْرَةَ فكتب في رقعة من أَدَمٍ، ثم مضى رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ**"[2]. وقال ابن عبدالبر: "وروى سفيان بن عيينة عن إسرائيل أبي موسى عن الحسن أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ قال لسراقة بن مالك: كيف بك إذا لبست سواري كسرى! قال: كسرى بْنَ هُرْمُزَ!؟ قال: نعم، قال: فلما أُتِيَ عمرُ بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقة فألبسه إياها، وكان سراقة رجلا أَزَبَّ كثير شعر الساعدين، فقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر،

1ـــ رواه أحمد والنسائي والطبراني، ... وأصل القصة في صحيح البخاري (4101)

2ـــ صحيح البخاري (9063)

الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة الأعرابي، ورفع بها عمر صوته."[1]

ونحن اليوم إذ نعيش هذا الذل والهوان، وغربة الإسلام الثانية في أوطانه، وخارج بلاده ــ نعلم علم اليقين، أن سنة الله واحدة ولن تتغير: "فلن تجد لسنت الله تبديلا، ولن تجد لسنت الله تحويلا" [فاطر 43، 44] ــ

كان من الواجب علينا، ألا نتباكى كثيرا على حال هذه الأمة، بقدر ما ينبغي أن نواصل مسيرة نبينا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، بتوجيه هذه الأمة إلى ما فيه خيرها وعزها، فنكون لها شموعا تنير لها الدرب، وتمسح عنها غبار الجهل والتفرق والتخلف،.. فنبعث فيها روح الأمل، ببيان مبشرات الإسلام بمستقبله الزاهر؛

إن المصلح الرباني والعالم المجدد، ينبغي له أن يبعث روح الغد الأفضل في أمته، ساعة العسرة، لأن السالك طريقا، إذا أيقن أنه مدرك لا محالة نقطة الوصول، فلا شك ساعتئذ أنه سيحمل مشاق السير، وتذل أمامه كل الصعوبات، ولو مثخنا بالجراحات، تلفه الصعوبات والمحن والأزمات... ــ فالزمان إذا كثرت فيه المحن والإحن، فإن الفشل واليأس يدب إلى النفوس ــ، وهو يدرك بلا شك ولا ريب أن الله لا يخلف الميعاد، وأن رسوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لا ينطق عن الهوى وإنما هو وحي يوحى، فتستقر هذه المبادئ في قلبه، ويستحيل أن تنزع منه بالكلية، قد تضعف، لكنها لا تزول.

أما إذا لم يسمع إلا البكاء على حال هذه الأمة وواقعها المر، فإنه سيضعف، بل ستنهار قواه، أمام غرب كافر متسلط، يتظاهر بحضارة جذابة فتانة، ينفخ فيها روح الكبر والسيطرة، لا يصمد أمام بريقها الزائف، إلا قلب متعلق بربه، متمسك بدينه، مستيقن أن الله ناصرٌ دينه، وأن العاقبة لعباده المتقين.

1ـ الاستيعاب 2/ 581 رقم 916 ــ وانظر أيضا: الإصابة رقم 3115 ــ والكامل في التاريخ لابن الأثير 2/ 39،40.

لهذا، فإن التركيز على هذا الجانب المهم، وهو مبشرات النصر والتمكين، في ضوء نصوص الوحيين، وتربية الأمة عليها وعلى هداياتها، له من الوقع في النفوس المؤمنة ما يرسخه فيها، ويبعث فيها روح الأمل والتفاؤل، فتندفع بحماس واجتهاد، للعمل من أجل الوصول إليه. وهذا، خير من ربط الأمة ببعض الدراسات المستقبلية، ـــ والتي أساسها مذكرات بعض القادة والرؤساء، كتبوها بناء على تجاربهم الشخصية، وثقافتهم الذاتية غير الواقعية ـــ فقد تستبشر الأمة خيرا، عندما تسمع من بعض هؤلاء، أن الغرب يخاف هذا البعبع النائم، وأن المسلمين سوف يكتسحون أروبا وأمريكا،... فيحلم المسلم بمستقبل، يحكم فيه المسلمون الدنيا، لكنه سرعان ما يفيق، ويتلاشى ما علق بذهنه من أحلام وأماني معسولة، لأنه يرى هذا المبشر الخائف ـــ قائدا كان أم مثقفا أم سياسيا ـــ، في واقع الأمر، يحكم قبضته عليه، ولا يترك له فرصة التحرك، بل يستعبده ويقصيه من كل ميادين التقدم والرقي، فيفشل، وتتبخر أحلامه تلك،...

ومساهمة مني في بيان هذا المنهج الرباني والسبيل الأقوم، لإعادة هذه الأمة إلى خيريتها، واستبشارا بمستقبل مشرق للتدين في العالم الإسلامي، وأن الإسلام حقيقة قادمة لا مرية فيها، ارتأيتُ بحثَ هذا الموضوع المهم، فأقول مستعينا بالله:

الإسلام آت آت، ومنتشر منتشر، هذا ما يخبرنا به ربنا ـــ تبارك وتعالى ـــ في كتابه العزيز في عدة آيات صريحة، أن دينه سيسود وسيعم أرجاء الوجود، رغم أنف كل عدو لدود، فيقول: "هُو الذي أَرْسلَ رسُولَه بالهدَى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدّين كُلِّه وكَفَى باللهِ شَهِيدًا" [الفتح 28]، ويقول: "هُو الذي أَرْسلَ رسُولَه بالهدَى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدّين كُلِّه ولَوْ كَرِه الْمُشرِكونَ" [التوبة 33]، يقول السيّد رشيد رضا ـــ رحمه الله ـــ عند تفسير هذه الآية.

"أما ظهور الإسلام بالحجة والبرهان، فلا يختلف فيه عاقلان مستقلان، عرفاه وعرفا غيره من الأديان،... وأما ظهوره عليها بالعلم والعمران، والسيادة والسلطان...[1] وقد بينت

1ـــ وقد ذكر ـــ رحمه الله ـــ بعض الأحاديث في الباب، كحديث ثوبان وحديث عدي بن حاتم،...

في هذا السياق، ما نرجوه ونتوقعه من ظهور الإسلام في مستقبل قريب، وبذلك تتم هذه البشارات على أكمل وجه، وكذا ما في معناها، كقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وعملوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْنًا،...) الآية."[1]

هذه الآيات الكريمة، تبشرنا بأن المستقبل للإسلام، بسيطرته وظهوره، وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فليست هذه نهاية المطاف، فالذي تحقق هو جزء من هذا الوعد الصادق، وإن وعده ــ تبارك وتعالى ــ، قائم ينتظر العصبة المسلمة، التي تحمل الراية وتمضي، مبتدئة من نقطة البدء، التي بدأت منها خطوات رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، وهو يحمل دعوة الحق ويتحرك بنور الله، وقد أشار إلى ذلك ــ عليه الصلاة والسلام ــ بقوله: **"لا يذهبُ الليلُ والنَّهارُ حتى تُعبدَ اللاّتُ والعزَّى، فقالت عائشة: يا رسول! إنْ كنتُ لأَظُنُّ حين أنزلَ الله:** (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)، **أن ذلك تامًّا. قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يَبْعَثُ الله ريحًا طيبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ في قلبه مثقال حبة خَرْدَلٍ من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم."**[2]

ففي هذا الحديث، بيان أن الظهور المذكور في الآية، لم يتحقق بتمامه، وإنما يتحقق في المستقبل، ومما لا شك فيه، أن دائرة الظهور اتسعت بعد وفاته ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ولا يكون التمام إلا بسيطرة الإسلام على جميع الكرة الأرضية، وسيتحقق هذا قطعا لإخبار الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بذلك، ففي قوله: ".. ثم يبعث الله ريحا طيبة،.." إشارة واضحة إلى أن وعد الله سيتم قُبَيْلَ بعث تلك الريح الطيبة، والتي لا تكون إلا في آخر الزمان، وهذا، لا يدع مجالا للشك في أن

1ـ تفسير المنار 10/ 394 ــ ط2، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

2ـ الحديث رواه: مسلم (رقم 5174)، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

المستقبل للإسلام، بإذن الله وتوفيقه, مما يزيد في تشحيذ همم العاملين للإسلام, ويكون حجة على اليائسين المتواكلين.

ومن ذلك، قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في الحديث الذي يرويه ثوبان ــ رضي الله عنه ــ: **"إنَّ اللهَ زَوَى لي الأرضَ فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلُغُ ملكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعْطيتُ الكَنْزَيْن: الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألتُ ربي لأمتي ألا يُهلكَهُم بسَنَةٍ عامّة، وألا يُسلّط عليهم عدوا مِنْ سِوَى أنفُسِهم فيَسْتَبيحَ بيْضَتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يُردّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلّط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكونَ بعضُهم يهلك بعضا، ويَسْبي بعضُهم بعضا."**[1]

زوى: أي جمع وضم، وطواها حتى أصبحت مرئية أمامه كالبساط المفروش.

الكنزين: المراد بهما (الذهب والفضة) لأنهما العملة المستعملة في كل زمان.

سنة عامة: أي بقحط وجدب يهلك عامة المسلمين.

يستبيح بيضتهم: أي يستأصلهم بالإهلاك فلايبقى منهم أحد، وبيضة الشيء أكثره ومعظمه. ومعنى الحديث؛ لا يسلط عليهم عدوهم فيفنيهم ويستأصلهم من الوجود. ومثله أيضا، الحديث الذي يرويه أبو رُقَيَّةَ تَميمٌ بن أَوْسٍ الدّارِيُّ ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال: **"لَيَبْلُغَنّ هذا الأمرُ ما بَلغ اللّيلُ والنهار، ولا يَتْرُكُ اللهُ بيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أَدْخلَه الله هذا الدّينَ، بِعِزٍّ عزيزٍ، أو بِذُلٍّ ذليلٍ، عِزًّا يُعزّ اللهُ به الإسْلامَ، وذلاً يُذل به الكُفْرَ."**[2]

1ــ الحديث رواه: مسلم (5144)، وأبو داود (4252)، والترمذي (2176) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (3952)، وأحمد (5/ 278، 284).

2ــ الحديث رواه: أحمد (16344)، وابن منده، والطبراني، وابن حبان (1631، 1632)،.. وهو في السلسلة الصحيحة رقم 3.

ومما لا شك فيه، أن تحقيق مثل هذا الانتشار، يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم وماديا‌تهم وسلاحهم، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان، ويخرجوا من الذل الذي هم واقعون فيه. وفي قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: "... إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل،..."، معنى بديع، وأصل عزيز، ينبغي ألا نغفل عنه أو ننساه، ذلك أن الأمر لله وحده من قبل ومن بعد، وليس لأحد من الناس، فهذه حقيقة إيمانية ينبغي أن نَعِيَها جيدا. فقوة الله لا تقهر، وهو القوي العزيز، الجبار المهيمن المتكبر، الذي لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، فأمره بين الكاف والنون: (واللهُ غالبٌ على أمْرِه ولكنّ أكثَرَ الناس لا يعلمُونَ) [يوسف 21]، فلو رسخت هذه المعاني في نفوس المسلمين، لما انبهرنا بقوى الكفر وأسلحتهم وتكنلوجياتهم، ولما نظرنا إليها بمنظر القوة والخوف، بل لرأيناها ونحن نلجأ إلى الله القوي العزيز، كأحقر ما يُرى وكأهون ما يخاف منه، وهذا لعمري، يشجع المسلمين ويجرؤهم على ردها ودحرها بنفوس تعلوا على دركات الكفروالضلال، وتحتمي بالعلي الكبير، راجية ومستيقنة بنصره لعباده المتقين.

فمثل هذه الحقائق الإيمانية، لما رسخت في قلوب المؤمنين الأوائل؛ من الصحابة والتابعين، واستيقنتها أنفسهم، دفعتهم لركوب المعالي وعدم الرضا بالدون، بل كانت همتهم فتح أي بلاد تصلها خيولهم، حتى يسود الإسلام، ويكون الدين لله وحده؛

فعن أبي قَبيلٍ قال: "كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ وسُئل: أيُّ المدينتين تُفتَحُ أولا: القُسْطَنْطِينية أو رُوميّة؟، فدَعَا عبدُ الله بصُنْدوقٍ له حِلَقٌ، قال: فأَخْرَج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: **بينما نحن حول رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نكتُبُ، إذ سُئل رسولُ الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: أيّ المدينتين**

تفتح أولا؛ القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: مَدينةُ هِرَقْلَ تفتح أولا، يَعْني: القسطنطينية."[1]

وقد تحقق من هذه البشارة النبوية، الفتح الأول على يد محمدالفاتح العثماني، كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنة من إخبار النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين.

ومن الهدايات التي يمكن أن نستشفها من الحديث، خطأ ربط المسلمين اليوم بمستقبل زائف، يعيش فيه الإسلام والكفر في سلم وأمان ووئام، لأن هذا يتناقض تماما مع حقيقة الإسلام، وحقيقة الصراع بين الحق والباطل وسنة الله في دعواته، والتي هي التدافع إلى يوم القيامة: (ولوْلا دِفَاعُ اللهِ النّاسَ بعضَهُم ببعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ، ولكنّ اللهَ ذو فَضْلٍ على الْعالَمينَ) [البقرة 249]، وقال أيضا: (ولولا دفَاعُ اللهِ النّاس بعضهُم بِبَعْض لَهُدِمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كثيرا ولَيَنْصُرَنّ اللهُ من ينْصُره إنّ اللهَ لَقَويّ عَزِيزٌ) [الحج 38]، فقد اقتضت حكمة الله أن يبقى الصراع والتدافع بين أولياء الله وأولياء الشيطان إلى ءاخر الزمان، والحرب بينهما سجال، وقد أقسم رأس الكفر والشر؛ إبليس اللعين، أنه سيسعى لإغواء الناس والتحريش بينهم إلى يوم الدين،... فهل نظن أنه سيتوقف، ويترك الناس يعيشون في سلام وأمن ووئام!؟، لا أبدا،...

وكما أن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أمر أمته بالصبر، وبشّرهم بمستقبل ظاهر يسود فيه الإسلام، ويحكم فيه أهل الحق، ففيه أيضا دفع لهم للعمل والاجتهاد، من أجل تحقيق الفتح الأول ثم بعده الفتح الثاني، فالإسلام يزرع في نفوس أتباعه الأمل والرجاء، لكنه قطعا لا يقبل منهم التواني والكسل والتواكل، بل يدفع بهم إلى حقيقة التوكل وهي

1ــ الحديث رواه: أحمد (2/ 176، رقم 6358)، والدارمي (1/126، رقم486)، وابن أبي شيبة، والحاكم (4/ 422، 508، 555)، وأبو عمرو الداني في "السنن الواردة في الفتن" (2/ 116)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة رقم 4.

بالأخذ بأسباب النصر والتمكين. فالصراع، يقتضي حتما إعدادا وتدافعا، وهذا لا شك يستلزم جهادا تربويا كبيرا، وكبيرا جدا،...

ومما لا شك فيه، أن تحقيق الفتح الثاني، يعني أن الإسلام سيخوض غمار معارك حامية الوطيس على جبهات متعددة، حيث يخرج منها مكللا بأكاليل النصر المؤزر المبين، .. فمن ذلك أن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أخبرنا بأن المسلمين، سيقاتلون اليهود ـ أبناء الغدر وأحفاد الخيانة ــ فقال: **"لا تقومُ السّاعةُ حتى يُقَاتِلَ المسلمون اليهودَ، حتى يَخْتَبِئَ اليهودُ مِنْ وَرَاءِ الحَجر والشّجر، فيقولَ الشجرُ والحجر: يا مُسْلم يا عبدَ الله، هذا يهوديّ خَلْفي تعَالَ فَاقْتُلْه، إلا الْغَرْقَد فإنه من شجرِ اليهود"**[1]

وهذا ثابت أيضا بآيات محكمات من القرآن الكريم، ففي فواتح سورة الإسراء، ما يؤكد أن جولة المسلمين مع اليهود في قادم الأيام، ستكون في صالح المسلمين؛ قال تعالى:

(وقَضَيْنا إلى بَني إسْرَائيلَ في الكتاب لتُفْسِدُنّ في الارضِ مَرّتيْنِ ولتَعْلُنّ عُلوّا كبيرًا، فإذاجاءَ وعْدُ أُولاهُما بَعثْنا علَيكُم عِبَادا لنا أُولي بأْسٍ شَديد فجَاسُوا خِلالَ الدّيارِ وكان وعدا مَفْعُولا، ثم رَدَدْنا لكُمُ الكَرّةَ عليهم وأمددناكُم بأمْوالٍ وبَنينَ وجعلناكم أكْثرَ نَفيرًا، إنْ أحْسَنْتُمْ أحْسَنتم لأنْفُسكم وإنْ أسَأْتُم فلَها، فإذا جاء وَعْدُ الآخرة لِيَسُوؤُوا وجُوهَكُم ولِيَدْخُلُوا المسْجدَ كما دخلوه أولّ مَرّةٍ ولِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبيراً، عسى ربُّكم أن يَرْحمكم، وإن عُدتُمعُدْنا وجَعلْنا جهنّم للْكافرين حَصيراً) [الإسراء 4، 8]

ففي هذه الآيات البينات، دلالات عدة، تبين أن الإفسادين المذكورين فيها، سيقعا بعد نزولها على النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، من ذلك:

ـ الآيات تثبت إفسادين اثنين يحدثهما بنو إسرائيل، بينما التاريخ يثبت إفسادات كثيرة لهم، ولكن هذين الإفسادين فسادا القمة،... فأولهما تكذيبهم للنبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ، والثاني ما يحدثونه اليوم ــ الكَرّة اليهودية ــ،...

1ــ الحديث رواه: البخاري (2926)، ومسلم (5203) عن أبي هريرة، والبخاري (2925، 3593) عن ابن عمر.

ـــ لو كان المقصود بالإفسادين أنهما مَضَيَا، لم يصح التعبير بـــ (إذا)، الذي يفيد الظرفية والشرطية في المستقبل، يؤكده أيضا قوله تعالى: "لتفسدن"، فاللام والنون كلتاهما للتوكيد في المستقبل، كذلك لما صح القول: "وعدا مفعولا"، لأنه لا يقال وعد، إلا لشيء لم يتحقق بعد

ـــ أن الآيات تُثْبِتُ أن لليهود كَرَّةً على من يسومهم العذاب في الإفساد الأول، ولم يذكر التاريخُ أنه كانت لبني إسرائيل كرة على أحد ممن سباهم، من الكِلْدانيّين والأَشُوريّين وغيرهم،...

ـــ أنّ الحُكامَ والأقوام الذين سَبَوْا بني إسرائيل قبل البعثة المحمدية، كانوا كفارا، والآيات تقول: "عبادا لنا" أي مؤمنين،...

ـــ أنه بعد الكرة اليهودية، يأتي العقاب الإلهي لهم على يد العباد نفسهم؛ ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا، وليتبروا،... والضمائر الثلاثة كلها ترجع إلى "عبادا لنا"،...

ـــ أن لفظ "المسجد"، تسميةٌ إسلامية لمكان العبادة، ولو كان المقصود بالدخول إليه في المرة الأولى والثانية قبل الإسلام، لذكر في القرءان باسم "المحراب"، أو "البيعة"، أو "المعبد"،...

ـــ في المرة الأخيرة، سيكون تدميرٌ لمبانٍ شاهقة عالية: "وليتبروا ما عَلَوْا تتبيرا"، والتاريخ لم يذكر لنا أنه كانت لبني إسرائيل هاتيك المباني،...

فهذه الآيات، من بشارات القرآن المستقبلية للمسلمين، بتحرير المسجد الأقصى للمرة الثانية، بعد تلك التي كانت على يد الخليفة الراشد، عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ، مستقبل إسلامي زاهر، متفجر بالحياة، يضع العقل المسلم المعاصر أمام الحقائق العارية، المؤثرة والمنظورة،... بلا جدل سياسي ولا تعقيد فلسفي، ولا أغاميض إعلامية،..[1]

ومن ثمة، فتحقيق الفتح الثاني ـــ أي فتح رومية ـــ، ـــ والذي يسبقه حتما إجلاء اليهود من أرض فلسطين ـــ؛ يستفاد منه أيضا، أن المستقبل للإسلام في بلاده وخارجها أيضا. فهو دين عالمي جاء للناس كافة، ورحمة للعالمين، فهو لا يقنع إلا بأن ينتشر التوحيد

1ـــ انظر لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع، كتاب: (الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة) للشيخ سليم ابن عيد الهلالي ص 55... 68.

في أرجاء المعمورة كلها، ويستدعي أن تعود الأمة الإسلامية إلى خيريتها من جديد، أمة واحدة موحدة في عقيدتها، موحدة في منهاجها، معتصمة بكتاب ربها وسنة نبيها ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ موحدة في قيادتها، تحت راية واحدة، ولا يكون هذا، إلا بعودة الخلافة الراشدة إلى هذه الأمة، وهذا ما يبشرنا به ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ.

فعن حذيفة بن اليمان ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ: **"تكونُ النّبُوة فيكم ما شاءَ اللهُ أن تكونَ، ثم يرفعُها الله إذا شاء أنْ يرفَعها، ثم تكون خلافةٌ على منْهاجِ النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يَرْفَعُها إذا شاءأنيرفعَها، ثم تكون مُلْكًا عَاضًّا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكونُ خلافةٌ على منهاج النبوة، ثم سَكَتَ ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ."**[1]

وإذْ قد تبين أن المستقبل لهذا الدين، فإن هذا الحديث يبين لنا معالم المنهج الذي سيأخذ بيد المسلمين إلى هذا المستقبل الزاهر، وإلى انتصارهم القاهر؛ إنه منهج على إثْرِ[2] صحابة رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ علما وعملا ودعوة، يدل على ذلك أمور وهدايات في حديث حذيفة:

الأول: أن مستقبل الإسلام، يتحقق بإعادة الخلافة الراشدة، واستئناف حياة إسلامية على منهاج النبوة.

الثاني: أن الذي حقق مجد الإسلام الأول، هو الخلافة النبوية الراشدة.

1ـ الحديث رواه: أحمد (4/ 273، رقم 17680) ـــ والطيالسي (438)ـــ ... وهو في السلسلة الصحيحة 35/1 رقم5، ثم قال الألباني ـــ رحمه الله ـــ: "ومن البعيد عندي حمل الحديث على عمر بن عبد العزيز؛ لأن خلافته كانت قريبة العهد بالخلافة الراشدة، ولم يكن بعده ملكان: ملك عاض وملك جبرية. والله أعلم"

ـ أي: على آثار وطريقة. 2

الثالث: أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أخبر بخلافة راشدة بعد النبوة، وبخلافة راشدة على منهاج النبوة في آخر الزمان، فتبين أن مستقبل الإسلام، كماضي الإسلام ازدهارا وانتشارا وانتصارا، يؤكده أيضا حديث: **"بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ..."**[1]، فكما أن الإسلام بدأ غريبا، ثم على إثره كانت نبوة ثم خلافة راشدة، أي عز وتمكين، فكذلك بعد الغربة الثانية للإسلام، والتي لا شك أننا نعيشها في هذه الآونة، فبعدها ــ بإذن الله ــ، ستكون خلافة راشدة على منهاج النبوة، وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا،...

الرابع: أن الذي حقق الخلافة الراشدة الأولى، هم أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ومن تبعهم بإحسان، إذن، فالذي يعيد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، هم كذلك من سار على منهج الصحابة الأبرار والتابعين الأخيار ومن تبعهم بإحسان.

وصدق إمام دار الهجرة، مالك بن أنس ــ رحمه الله ــ عندما قال، مقررا ومؤصلا لسنة الله في دعواته: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها."

فالمنهج المؤهل لإعادة المسلمين إلى مستقبلهم المنشود، وخلافتهم الراشدة، هو منهج سلفهم الصالح؛ من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان. فأهل السنة والجماعة ــ حقا ــ هم الجماعة الوحيدة، المؤهلة لقيادة الأمة من جديد، نحو عزها وسعادتها في الدنيا، وفوزها برضوان الله في الآخرة.

وإن الواقع المعاش لخير شاهد، فإننا نرى الأعداء، يتكالبون على استئصال أهل السنة، والتضييق عليهم في كل مكان وزمان، فينبغي التفطن لحقيقة الصراع، ولسبيل النجاة والنصر، فالأعداء يدركون جليا مكمن قوة المسلمين، وأساس عزهم، الشيء الذي نحن عنه غافلون، ولا نريد فقهه وتفهمه.

---

[1] ــ الحديث رواه : مسلم (208)، وابن ماجه (3976)، وأحمد (8693)، عن أبي هريرة ــ ومسلم (20) عن ابن عمر.

وهذا كله، يقتضي منا تصحيح المسار، في خدمة الإسلام من اللبنة الأولى والحجر الأساس، حتى يكون البناء صحيحا حتى ولو طال الزمان، أما التمادي في مسارات خاطئة، ومنحرفة عن منهج النبي ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ، وقد زاد الواقع في تأكيد خطئها وإثبات عدم جدواها، فهذه لا تزيد الإسلام والمسلمين إلا نكبات ونتائج سلبية، قد تنال من عزيمة العاملين والأتباع، وهو ما يحدث اليوم، لأن الوسيلة إذا لم تكن صحيحة فيستحيل الوصول إلى نتيجة صحيحة.

ـ وفي الأخير قد نتساءل سؤالا واضحا وصريحا: ماذا نعمل؟، وكيف نعيد هذه الأمة إلى خيريتها، وعزها من جديد؟

يجيبنا إمام دار الهجرة، مالك بن أنس ـــ رحمه الله ـــ، بجواب قصير، لكنه أصل أصيل، وقاعدة سُنِّيَّة، تدل على فقه متين، وفهم رباني، لسنة الله في دعواته، فيقول: "لن يَصْلُح آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلُح به أولها" ويقول علاّمة الجزائر، ومصلحُ دعوتها، وإمام السنة فيها، عبد الحميد بن باديس ـــ رحمه الله ـــ: "لن يَصْلُح المسلمون حتى يصلُحَ علماؤُهم؛ فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسدُ كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسْلامَ وعملِهم به؛ وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أَهْلَ جُمُودٍ في العلم، وابْتِداعٍ في العمل، فكذلك المسلمون يكونون. فإذا أَرَدْنا إصْلاَحَ المسلمين، فَلْنُصْلِحْ علماءَهم.

ولن يَصلُح العلماء إلا إذا صَلُح تعليمُهم، فالتعليم هو الذي يَطْبَعُ المتعلمَ بالطابع الذي يكون عليه في مستقبَلِ حياته، وما يَسْتقبِلُ من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التّعْليمَ، ونعني بالتعليم؛ التعليم الذي يكونُ به الْمُسلمُ عالِمًا من عُلماءِ الإسْلام يأخُذُ عنه النّاسُ دينَهم، ويقتدون به فيه. ولن يصلح هذا التعليم، إلا إذا رجعنا به للتعليم النبويّ، في شَكْلِه ومَوْضُوعه، في مادَّتِه وصورَتِه، فيما كان يُعَلِّمُ ـــ صلى الله عليه

وآله وسلم ــ، وفي صورة تعليمه، فقد صَحّ عنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فيما رواه مسلم أنه قال: "إنّمَا بُعِثْتُ مُعلّما...".[1]

وهذا توضيح وتأصيل بديع منه ــ رحمه الله ــ، لحقيقة الإصلاح، الذي تحتاجه الأمة الإسلامية، حتى يعود لها عزها ومجدها، فإن الذل والهوان الذي أصابها، سببه الأساس، البعد عن الدين تعلما وتعليما وعملا، لأن فقدان العلم أو اختلاله، هو أسرع طرق الضلال والانحراف: "... **حتى إذا لم يُبْقِ عَالِمًا، اتخذَ النّاسُ رؤوسًا جُهّالا، فسُئلوا فأفْتَوْا بغَيْر علْمٍ، فضَلُّوا وأَضَلّوا.**"[2] فكان الواجب إذن، إزالة هذا الجهل، الذي ران على قلوب المسلمين، بتعليمهم دينهم الحق، والرجوع بهم إلى المنبع الصافي لهذا الدين؛ كتاب الله وسنة رسوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهدي سلف هذه الأمة، بنبذ التقليد وإحياء منهج الاتباع. فعز المسلمين وشرط نصر الله لهم، لا يكون إلا بنشر العلم الصحيح النافع وتربيتهم عليه[3]، وحثهم على العمل الصالح الموافق لهذا العلم، والاجتهاد في لزومه، وتحقيق العبودية لله وحده ــ تبارك وتعالى ــ.

ثم إن هذا العلم كما يقول ابن باديس، لا يكون ذا فائدة ترجى وثمرة تجنى، إلا إذا كان موضوعُه موافقًا للعلم النبوي: "فيما كان يُعَلِّم ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، وفي صورة تعليمه،..."، وطريقتُه موافقةً للمنهج والهدي النبوي في التعليم، بدأً بغرس التوحيد في

1ــ مجلة الشهاب، المجلد10، الجزء11، رجب 1353، أكتوبر 1934/ ج10 ص535ــ دار الغرب الإسلامي، ط1، 1421، 2001. وينظر بقية كلامه ص536 .. 538.

2ــ الحديث رواه: البخاري (98)، ومسلم (2673)، وأبو داود (2576)، وابن ماجه (51)، وأحمد (222_6498، 6602)، والدارمي (241)،... عن عبد الله بن عمرو.

3ــ وهذا ما يدعوا إليه علماء أهل السنة منذ عشرات السنين، وقد تنبه إليه ــ بعد لأْي ــ بعضُ الدعاة. فيقول محمد قطب: "أقول: إنني أشعر بحق ــ بعد تدبر هذا كله ــ أننا اليوم في مقام التعليم، قبل التصدي بإصدار الأحكام على الناس. وأن هذا التعليم ــ لإزالة الغربة الثانية التي تحيط بالإسلام اليوم ــ، يحتاج من الوقت والجهد شيئا غير قليل، ولكنه في النهاية هو الذي سيحسم القضية حسما كاملا، ...". واقعنا المعاصر ص442.

نفوس الأتباع، وتربيتهم على مكارم الأخلاق وفضائل الآداب، وصحة العبادات، مع الصبر عليها، وهكذا إن أقاموا الإسلام في نفوسهم، استحقوا نصر الله الموعود، والله لا يخلف الميعاد. نعم، "إن النصر قد يُبْطِئُ على الذين ظُلِموا وأُخرِجوا من ديارهم بغير حق،.. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

وقد يبطئ النصر، لأن بِنْيَةَ الأمة المؤمنة لم تنضُجْ بعْدُ نُضْجَها، ولم يَتِمَّ بعدُ تمامُها، ولم تُحْشد بعد طاقاتُها، ولم تتحفّزْ كلُّ خلية وتتجمع لتَعْرِفَ أقصى الْمَذْخور فيها من قوى واستعدادات، فلَوْ نالت النصرَ حينئذ، لفقدتْهُ وشيكا، لعدم قدرتها على حمايته طويلا،...

وقد يبطئ النصر، لتزيدَ الأمة المؤمنة صِلَتَها بالله، وهي تعاني وتتألم وتَبْذُل، ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا مُتوَجَّها إلا إليه وحده في الضراء.

وهذه الصلة، هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يَتَأَذَّنُ به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير، الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر، لأن الأمة المؤمنة، لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتلُ لِمَغْنم تحققه، أو تقاتل حميّةً لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها.

والله يريد أن يكون الجهاد له وحده، وفي سبيله، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد يبطئ النصر، لأن الباطلَ الذي تحاربه الأمّةُ المؤمنة، لم ينكشف زيفُه للناس تماما، فلو غلبه المؤمنون حينئذ، فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتَظَلُّ له جذورٌ في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقةُ، فيشاء الله أن يفنى الباطلُ حتى يتكشّفَ عاريًا للناس، ويذهبَ غيْرَ مأسوفٍ عليه من ذي بقيّة.

وقد يبطئ النصر، لأن البيْئةَ لا تَصْلُحُ بعدُ لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ، لَلَقِيَتْ معارضةً من البيْئة لا يستقرُّ لها معها قَرَارٌ، فيظل الصراع قائما، حتى تتهيأ النفوسُ من حوله لاسْتِقْبالِ الحق الظافر، ولاسْتِبْقائه.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

والنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به، بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتَهَيُّأ الجوّ حوله لاستقباله واستبقائه: (ولينصُرَنّ اللهُ من ينصرُه، إن الله لقويٌّ عزيزٌ، الذين إن مّكناهُم في الأرض أقامُوا الصّلاة وآتوْا الزكاة وأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ولله عاقبةُ الأُمُور)، وهو نصرٌ له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه، فلا يُعْطَى لأحَدٍ جُزافا أو مُحَابَاةً، ولا يَبْقَى لأحد، لا يُحققُ غايتَه ومُقْتضَاه،..."[1]

وابن باديس، إذ يبين هذه الحقيقة المنهجية، ويوضح السبيل الأقوم، للنهوض بهذه الأمة من جديد، إنما يستمد هذا المنهاج، ويستلهم هذا الفهم الرشيد من سنة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، من مثل الحديث، الذي يرويه الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ ــ رضي الله عنه ــ، حيث قال: "**وَعَظنا رسولُ الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ مَوْعظةً بليغةً، وَجِلَتْ منها القلوبُ وذَرَفَتْ منها العيون، فقُلْنا: يارسول الله! كأنّها موعظةُ مُوَدِّعٍ فأَوْصِنا، قال: أوصيكُم بتقوى الله، والسّمْعِ والطاعةِ وإنْ تَأَمَّرَ عليكم عبْدٌ حبَشيٌّ، فإنهُ مَنْ يَعِشْ منكم بعْدي، فسيَرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسُنَّتي وسنّة الخُلفاء الراشدين المَهْدِيّين، عَضُّوا عليها بالنّوَاجذ، وإيّاكُم ومُحْدثات الأمُور، فإنّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النّار**"[2] فالنبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ، يصف الحال التي ستؤول إليها هذه الأمةُ، وأنه سيحدث فيها اختلافٌ وتنازعٌ كبير وشقاق بعيد، لكن، وهو الناصح الأمين، والرحيم بأمته، لم يسكت عند ذكر الداء، بل تعَدّاه لوصف الدواء عند ذاك الزمان، فقال: "... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين،..."، محذرا في الوقت نفسه، من المحدثات والبدع في الدين، والتي للأسف، كثرت وانتشرت فأفسدت بهاء الإسلام وصفاءه،...

واسمع إلى ابن باديس، وهو يتكلم عن هذا الداء نفسه، فيقول: "...فإذا كان علماؤُهم أهلَ جمود في العلم، وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون،..." ثم يصف

1ــ سيد قطب، الظلال 4/ 2426، 2428.

2ــ الحديث رواه: أحمد (16519)، والترمذي (2600) وقال: "حسن صحيح"، والنسائي، وأبــو داود (3991). وابن ماجه (42، 43)، والدارمي (95)،...

الدواء ــ رحمه الله ــ، كما وصفه النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ تماما، فيُنَبّه إلى وجوب الرجوع إلى الهدي النبوي والتمسك به، والتمسك بمنهج الخلفاء الراشدين، ومن تبعهم بإحسان، من التابعين والأئمة الأعلام، مشيرا إلى صحة منهجهم وسَدَادِ فَهْمِهم وقِوَامِ طريقتهم،... وهو ــ رحمه الله ــ، من المصلحين القلائل، الذين فهموا حقيقة دين الإسلام، وأن أساس عزّ أتباعه ونصرهم، إنما هو بعودتهم إلى دينهم ــ كتابا وسنة ــ، متبعين منهج أهل السنة والجماعة، عِلْمًا، وعَمَلاً، ودَعْوَةً: ". . . إلا إذا رجعنا إلى التعليم النبوي، في شكله وموضوعه، في مادته وصورته،... وفي صورة تعليمه،...".